سنّ الرّشد

كنت أريد أن أكتب عن «مركزية اللوغس/العقل/الكلام (القول)»؛ عن «اللّوغس» يصير «كلاماً» ثمّ «قضيباً» يحاول أن يبعده عن المركز «رحِمٌ» تُحلّه محلّه بعض الكاتبات النّسويات.

كنت أريد أن أتابع هذا المفهوم في ترحاله... أن أتأمّل في ما يمكن أن يكون قد التقطه أو التصق به وهو في طريقه إلى اللغة العربيّة ومنها إلى الثقافة العربيّة.

ثمّ التقيت أدونيس...

كان يسأل عمّا بإمكانه أن يسأل هو الّذي «... نشأ في مناخ ديني يعلّمه شيئين على المستوى المعرفي:

الأول أنّ محمّداً خاتم الأنبياء لا نبي بعده، والثاني أن الرّسالة الّتي أتى بها خاتمة الرّسالات. وهذا معناه أمران؛ الأوّل أنّه ليس للإنسان ما يقوله؛ بمعنى أنه ليس له ما يضيفه. وإذا ما تجرّأ أن يقول شيئاً فسوف يجد نفسه خارج الملّة. وفي أحسن الحالات، فإنّه يستطيع أن يؤوّل، إذا ما قبلنا بالتأويل، أو أن يفسّر ويشرح ويحوِّل الدين إلى مجموعة من الأوامر والنّواهي تقلِّص الدين إلى فقه. والأمر الثّاني أن الله قال كلّ شيء من حيث إنّه أعطى كلامه الأخير في رسالته الأخيرة لنبيّه الأخير. وهذا يعني أن الأفق المعرفي مسدود... فهذا الذي أوحي به فيه كلّ شيء... فيه ما مضى وما هو حاضر وما هو آت.

سميرة بن عمّو

كيف أخرج من هذا؟

هل أستطيع أن أطرح هذه القضايا؟

هل أستطيع أن أطرحها وأجيب عنها معرفياً؟

هل أستطيع أن أطرح سؤالاً عن القيمة المعرفية اليوم للوحي؛ أيّ وحي كان؟

هل أستطيع أن أطرح سؤالاً عن المعنى الإلهي في هذا التّمفصل بين السّياسي والديني لإدارة البشر؟

هل أستطيع أن أطرح سؤالاً أنتولوجيّاً عن وضع الإنسان ذكراً أو أنثى في النّص المؤسس للثقافة الدينية، وعمّا إذا كان هذا النص من الأساس فيه خلل في النظرة إلى الإنسان.

وإذا كان هذا النص في جوهره نص الذكورة، فكيف أنظر إلى الأنوثة؟

الأنوثة موضوع بالنّسبة للذكر، موضوع للذَّكر يتأمّله ويحلله ويقول فيه ما يقول. وليست قريناً، ولا إنساناً سوياً، ولا في مساواة الذكر.

إذا لم أستطع أن أطرح مثل هذه الأسئلة لا يمكن أن أنتج فكرة جديدة، بل سأظل أنتج فكراً في السياق القديم. وهذا الفكر لن يكون له أي معنى على الإطلاق؛ لن يغني أو يسمن من جوع، ولن يقدم لك أية معرفة. ولذا فأنت تحس اليوم ميدانياً وعملياً أنّ الثقافة العربية السّائدة إما أنها دين أو أنها عودة إلى السلف... بحث في قضايا لم تعد قضايانا، وتقديم لأجوبة لا تجيب على مشكلاتنا. ثقافتنا اليوم هي هذه الثقافة أو ثقافة الترجمة. أمّا الجانب التساؤلي العميق الذي يعيد النظر ويطرح الأسئلة الكبرى ويفتح آفاقاً جديدة للتساؤل والبحث، فجانب ضئيل جداً... مهمش... غير جذري بالقدر المطلوب ولا يولّد أي حركة لأنه محاصر ومهمش. وما يقال في الفكر يقال في الشعر وفي الفن وفي العلوم.»[1]

بعد أن تكلّم أدونيس...

هل أبدأ من «مركزيّة العقل/الكلام»... أم أبدأ من «ما بعد الحداثة»؟

أم أبدأ من الثّقافة العربيّة؟

وهل ثمّة علاقة تربط بين الثّقافة العربيّة و«الحداثة» كي أبدأ من «ما بعد الحداثة»؟

(١) أدونيس في «لقاء ثقافات»، «ثقافات»، (مجلة ثقافية فصلية تصدر من كلية الآداب – جامعة البحرين)، العدد ٩.

هل عقلت الثّقافة العربيّة نفسها كي تضع عقلها موضع النّقد فتجد لنفسها مكاناً في فضاء «ما بعد الحداثة»؟

أم ننتظر منها وهي تواجه نفسها في مرآة الذات أن تتمخّض عن«عقل» تبتكره بنفسها لنفسها؟

حضرني وأنا أصغي إلى أدونيس سائلاً: «هل أستطيع أن أسأل سؤالاً أنتولوجيّاً عن وضع الإنسان ذكراً أو أنثى في النّص المؤسس للثقافة الدينية، وعمّا إذا كان هذا النص من الأساس فيه خلل في النظرة إلى الإنسان»:

– أنّني أنثى.

– وأنّني أنتمي إلى مجتمع عربي إسلامي يخضع للنظام الأبوي.

أمّا الثّقافة العربيّة، وأمّا تجانسها أو عدم تجانسها (أعيد هنا إلى الحدود التقليدية بين ثقافة الخاصة وثقافة العامة؛ بين النظريّة والممارسة؛ بين الفن والحياة؛ بين المهيمن والمهمش. أعيد إلى الطبقة، إلى العرق، إلى النوع...) فالعودة إلى النّصوص بأشكالها هي الحكم.

وأمّا ذكوريّة هذه الثقافة/الثّقافات فسأضعها بين قوسين في انتظار أن يثبت عكس ذلك.

ويبقى أنّ هذه الثقافة/الثقافات العربيّة تتداخل مع الديني سلباً أو إيجاباً رفضاً أو قبولاً...

ويبقى أنّ النّص المؤسس للثقافة الدينية –أو لنقل لثقافة الأغلبية الدينية– واحد وفي متناول الجميع يقرأه من يريد أن يتجشّم مشقّة التمحيص في ما آل إليه عبر القراءات ويقرأه من يريد أن يتجشّم مشقّة القراءة من موقع غير مطروق.

وحضرتني – وأنا أصغي إلى أدونيس– «لوس إريجاراي»... حضرتني قراءتها لهذه الآيات من الكتاب المقدّس: «وفيما هم يأكلون أخذ يسوع الخبز وبارك وكسّر وأعطى التّلاميذ وقال خذوا كلوا، هذا هو جسدي./ وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً اشربوا منها كلّكم،/ لأنّ هذا هو دمي للعهد الجديد الّذي يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا./ »[٢]

وحضرني تعليقها عليها أن «ربّما كان في مقدورنا (نحن النّساء) أن نذكّر (القسّ) بأنّه ما كان ليكون هنا لو لم يمنحه جسدنا ودمنا حياة ومحبّة وروحاً.»[٣]

(٢) الكتاب المقدس، إنجيل متّى، الاصحاح ٢٦، الآيات ٢٦–٢٨.

(٣) Luce Irigaray, ‘‘Le corps a corps avec la mère’’, p33 in ‘‘Sexe et parentes’’, Paris, Les éditions de minuit, Collection ‘‘Critique’’, 1987.

وحضرتني مركزية العقل/الكلام/القضيب (كدال على سلطة الذكر) ومقابلها «مركزيّة الرّحم»، وأنّ «ل. إريجاراي» تقرأ لتعرّي مركزيةً ترفضها لأنّها تهمّشها كإنسان–أنثى.

وتساءلت: أين الثقافة العربيّة من مركزية العقل؟

جاءني الصّوت طالعاً من فجر الفلسفة اليونانية:

«سأحدّثك عن النّجدين الوحيدين السّالكين إلى البحث. فالنّجد الأوّل –أي كيف أنّه هو، وأن ليس في الإمكان أن هو لا يكون– هي الطّريق المأمون، إذ هي تتّبع الحقيقة. أمّا النّجد الثّاني –أن هو ليس هو، وأنّ اللاّكون كائن ضرورة، فإنّي أقول إنّه سبيل قد خلا ممّا يؤتمن به. إذ لا قدرة للمرء على معرفة ما ليس هو – فلا منفذ من ذلك ممكناً، كما لا قدرة على صياغته في قول. إنّ ما هو، فعل فكر وكونٌ في آن».(٤) كان الصّوت يبشّر وقتها بأنّه ولد للغرب «عقل/قول/كلام» من «برمينيدس».

فتذكّرت ترحال ابن رشد ميّتاً بمعيّة كتبه، وتساءلت: أين الثقافة العربية من العقل بعد أن أخذوا منها ابن رشد، أو بالأحرى بعد أن تخلّت عن ابن رشد فتبنّاه غيرها؟

وهل يجوز – والحال هذه– أن «نتّهم» الثقافة العربيّة – أو ما آلت إليه الثقافة العربيّة– بمركزيّة العقل، وهل يعقل – والحال هذه– أن نطالبها بنقد عقلها؟

وجاءني صوت آخر طالع من فجر التّوحيد يعلن أنه: «في البدء كان الكلمةُ والكلمةُ كان عند اللهِ وكان الكلمة اللهَ. هذا كان في البدء عند اللهِ.»...«والكلمة صار جسداً وحلّ بيننا ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقّاً.»(٥)

ثمّ التقى الصّوتان عند الكلام/اللوغوس و«الكلمة»(و«الكلمة» التي تُرجمت إلى «لوغوس» في النّص اليوناني للأناجيل تُعامَل معاملة المذكّر في النص العربي، رغم تاء التّأنيث) فطلع «الكلام» من تلاقح الفكر اليوناني واللاّهوت المسيحي شريعة إلهٍ «آب» تفرض سلطة الذّكر.

في هذه التربة زرع «جاك لاكان» وبعده «جاك ديريدا،» فتماهت «مركزية العقل»

(٤) بارمينيدس، قصيد «إلى ينابيع الفلسفة»، ترجمة يوسف الصّدّيق، ص ١٢١، دار الجنوب، تونس، د. ت.
(٥) الكتاب المقدّس، إنجيل يوحنّا، الآيات١–٢ و٤

مع «مركزية القضيب» حيث يعمل القضيب عمل العلامة اللّغويّة الّتي يعيد وجهها المدلول إلى سلطة الذّكر.

ولكنّني أقرأ في النّص المؤسّس لثقافتي الدينية أن «قل هو الله أحد/ الله الصّمد/ لم يلد ولم يولد/ ولم يكن له كفواً أحد.»(٦) وأقرأ التنزيه رغم علامات التّذكير على المستوى اللغوي للعربيّة.

ويعاودني سؤال أدونيس: «إذا كان هذا النص في جوهره نص الذكورة، فكيف أنظر إلى الأنوثة؟» فأتساءل عن الأسس التي قامت عليها ذكورة النص؛ هذا إذا كان النّص «في جوهره نص الذكورة».

ويعاودني سؤال أدونيس: «هل أستطيع أن أسأل سؤالاً أنتولوجيّاً عن وضع الإنسان ذكراً أو أنثى في النّص المؤسس للثقافة الدينية، وعمّا إذا كان هذا النص من الأساس فيه خلل في النظرة إلى الإنسان».

فيحضرني أنّ الأحكام التكليفية سواء منها الدينية أو الدنيويّة، الأخلاقية أو التّعبّدية تتوجّه في النّص المؤسّس إلى الذّكر والأنثى من دون أن يكون لأيّ منهما على الثّاني درجة. أمّا القوامة، وأمّا الإرث، وأمّا جواز إمامة النّساء أو عدمها وغير ذلك ممّا يضع الأنثى في موضع لا تتساوى فيه مع الذكر فلا يدخل في باب الأنتولوجي وإنّما يطرح مسألة القراءة... من قرأ النص ومتى قرأه ومن أيّ موقع قرأه.

ويعاودني قول أدونيس «أنّ محمّداً خاتم الأنبياء لا نبي بعده، وثانياً أن الرّسالة الّتي أتى بها هي خاتمة الرّسالات. وهذا معناه أمران؛ الأوّل هو أنّه ليس للإنسان ما يقوله، بمعنى أنه ليس له ما يضيفه، وإذا ما تجرّأ أن يقول شيئاً فسوف يجد نفسه خارج الملّة» فيحضرني بصدد الخروج عن الملّة « إمانويل كانط» وهو يحدّد «الأنوار» بأنّها «خروج، ومخرج يسلكه الإنسان فيخرج من وضعه كقاصر، وضع يعود الخطأ فيه إلى الإنسان ذاته. فالقصور هو عجز المرء عن استخدام عقله من دون أن يسلّم قياده لغيره. ويكون القصور خطأ الإنسان عندما لا يكون السبب فيه انعدام العقل عنده، وإنّما انعدام القرار وانعدام الشجاعة على أن يقود ذاته بذاته من دون أن ينقاد لآخر غير ذاته.

«لتكن لك الشجاعة... الجرأة على المعرفة... على أن تستعمل عقلك.» ذلك هو شعار التّنوير.

الكسل والجبن هما السببان اللّذان يجعلان هذا الجزء الكبير من البشر يقبل

(٦) القرآن، سورة الإخلاص.

راضياً بالبقاء قاصراً طوال حياته بعد أن حررته الطبيعة لفترة طويلة من الانقياد لآخر غير ذاته، فالإنسان راشد بالطبيعة...

...وإنّه لمن المريح جداً أن يبقى الإنسان قاصراً. إذا كنت أملك كتاباً يفكر عنّي أو كان عندي رجل دين يملك ضميراً عني...فإنّه من الأكيد أنني لا أكون بحاجة لأن أتعب نفسي... »(٧)

أي أنّ «الأنوار تتحدد بتقويم علاقة قائمة تربط بين الإرادة والسلطات واستعمال العقل...

شرطان أساسيان يجب أن يتوافرا حسب «كانط» كي يخرج الإنسان من حالته كقاصر؛ شرطان ينتميان إلى الروحيّ والمؤسّساتي والأخلاقي والسياسي في الوقت نفسه.

أمّا أولهما فأن يتمّ التمييز بشكل جيد بين ما يتعلّق بالطّاعة وبين ما يتعلّق باستعمال العقل. ويورد «كانط» – ليصف بإيجاز حالة القصور– التعبيرالشّائع «أطيعوا ولا تفكروا (لا تستعملوا عقلكم)»، والذي يشكل برأيه الصيغة التي يمارس بها في العادة الانضباط العسكري والسلطة السياسية والنفوذ الديني. ولن تبلغ الإنسانية سنّ الرّشد عندما لا تكون مطالبة بأن تطيع، وإنّما تبلغه عندما يقال لها «أطيعي وسيكون بمقدورك أن تفكّري (أن تستعملي عقلك) كما تريدين.» وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ الكلمة الألمانية التي يستعملها «كانط»... تعيد إلى استعمال للعقل لا غاية للعقل منه إلاّ العقل ذاته. فالكلمة تعني التفكير بهدف التفكير. ويعطي كانط أمثلة على ذلك تبدو تافهة في الظاهر:... أن يقوم المرء عندما يكون قسّاً على خدمة الخورنيّة بما يتّفق مع مبادئ الكنيسة التي ينتمي إليها وأن يفكّر كما يريد في أركان العقيدة الدينية.

... ولا يعني هذا أن للإنسان الحق في أن يفكّر كما يشاء بشرط أن يطيع كما يجب. فكانط يُدخل بشكل مفاجئ تمييزاً آخر هو التمييز بين الاستعمال الخاص والاستعمال العام للعقل.

...يقول «كانط» إن الاستعمال الخاص للعقل هو ما يفعله الإنسان عندما «يكون قطعة من آلة»؛ أي عندما يكون عليه أن يؤدي دوراً في المجتمع وأن يمارس وظائف... في هذه الحالة يتوجب على المرء أن يستعمل عقله بما يتناسب مع هذه الظروف المحددة... وفي هذه الحالة لا يمكن أن يكون هنالك استعمال حر للعقل.

(٧) E. Kant. "Qu'est-ce que les lumières?", trad. Wismann, in Œuvres, Paris, Gallimard, coll. "Bibliothèque de la Pléiade", 1985, t.II

أما عندما يفكر المرء بهدف استعمال عقله فقط، عندما يفكر ككائن عاقل (وليس كقطعة من آلة)، عندما يفكر كعضو ينتمي إلى الإنسانية العاقلة، عندها يجب أن يكون استعمال العقل حرّاً وعامّاً.

... ويكون التّنوير عندما يوضع الاستعمال الكوني للعقل واستعماله الحر واستعماله العام بعضه فوق بعض.

... وهذا ما يجعل من التنوير مسألة سياسية أيضاً. والسؤال المطروح –على كل حال– هو أن نعرف كيف يمكن لاستعمال العقل أن يأخذ الشكل العام، والضروري بالنسبة له؟ كيف يمكن ممارسة الجرأة على المعرفة في وضح النهار في حين أنّه يتوجب على الأفراد أن يطيعوا بأبلغ دقة ممكنة؟

يعرض «كانط» في النهاية عقداً على «فردريك الثاني» يكون الاستعمال العام والحر للعقل المستقل (أي الخاضع لقوانينه هو) الكفيل الأفضل للطاعة بشرط أن يكون المبدأ السياسي الذي تتوجب طاعته مطابقاً بذاته للعقل الكوني»(٨)

ما أريد أن أقوله هو أنّه بالإمكان – للنّساء والرّجال– مساءلة النص المؤسس من دون الخروج عن الملّة لمن لا يريد الخروج عنها وأنّ المساءلة لن تستوجب تهمة الخروج إذا ما اعترف بعضنا لبعض – نساء ورجالا– بحقّه في بلوغ سنّ الرّشد.

وإذ أعود إلى خاتم الأنبياء وإلى خاتمة الرّسالات تحضرني قراءة «هشام جعيط» للخواتم في كتابه «الفتنة الكبرى» حيث لا يعني «كلام الله الأخير ورسالته الأخيرة لنبيّه الأخير أن الأفق المعرفي مسدود» وإنّما يعني أنّ العقل عند الإنسان هو الّذي سيقوم بعد انقطاع الوحي بما كان يقوم به الوحي المنقطع، أي أن الخاتم انتقال بالبشريّة إلى سنّ الرّشد – إن أرادت البشريّة لنفسها رشداً.

وإذ أعود إلى النّص المؤسّس وإلى قراءته أو قراءاته تحضرني طبيعة النص الديني –أي نص ديني– التي تميزه عن بقية النّصوص والّتي تكمن في انفتاحه... في قابليته للقراءات المختلفة تبعاً لاختلافات الأزمنة والأمكنة، وأنّ هذه القابلية هي سرّ العمر المديد لهذا النّوع من النّصوص؛ قابليّة يمكن التعبير عنها باستعارة مصطلح البنية والقول إنّ النص الديني بنية عميقة تخرج إلى السطح مكتسية – كلّما امتدّ بها العمر– بكلم جديد؛ علامات دالة جديدة؛ حزم جديدة تتشكّل من قديم كلم النّص تكوّنها وتختار مدلولاتها كفاءةَ مكانٍ جديد وظرفَ زمانٍ جديد، وأداءهما.

(٨) M. Foucault. ‘‘Qu’est-ce que les lumières?’’, in Dits et écrits II, 1976-1988, Gallimard, ‘‘in Quarto’’.

وتعيدني القراءات إلى سؤال أدونيس عمّا إذا كان النّص المؤسس هو في جوهره نصّ الذكورة، فتحضرني قراءات جديدة–قديمة للنص تقوم بها نساء يظهرن على صفحات الفضائيات العربية – وأعرف أنّ جنوسة الفرد لا علاقة لها بجنسه البيولوجي– قراءات أسمعها تستعمل لغة قيلت منذ قديم، وتكرّس –لأنّها تنسى التّاريخ– وضعاً للأنثى دون وضع الذكر... ربّما كان له ما يبرره في سياق تاريخي معيّن؛ فأسمع الكلمات تقول غواية الكلمات... تعيدني إلى مركزية اللوغس التي أردت أن أتابع ترحالها.